الاقتضاء الحجاجي في سورة النبأ

- دراسة تداولية في المعنى المضمر -

المدرس الدكتور
عبد الأمير جبر سهيل
الجامعة الإسلامية ـ النجف الأشرف
nce2020007@iunajaf.edu.iq

Argumentative Implicature in Surah An-Naba

- A Pragmatic Study of Implicit Meaning -

Lect. Dr.
Abdul Amir Jabr Suhail
Islamic University - Al Najaf Al Ashraaf

الملخص:-

يعد الاقتضاء الحجاجي من أبرز الآليات التداولية التي تسهم في بناء النص وبيان المعنى المضمر داخل الخطاب، إذ يعتمد على مجموعة من المسلمات التي يفترضها المتكلم ويستنتجها المتلقي من خلال السياق، فتتحول هذه الأمور المسلمة إلى مقدمات حجاجية تقود المتلقي إلى نتائج اقناعية.

وقد اهتم الدرس اللساني الحديث بدراسة المعاني الضمنية التي لا يمكن فهمها من الدلالة الحرفية وحدها، وإنما يمكن معرفتها من خلال سياق الجملة، ومن مقتضيات المقام التداولي، وقد أولى الدارسون التداوليون عناية كبيرة للاقتضاء بوصفه عنصراً أساسياً في عملية التواصل؛ لأنه يختزن معاني غير مصرّح بها تؤدي دوراً مهماً في توجيه فهم المتلقي.

ومن هنا جاءت أهمية دراسة موضوع الاقتضاء الحجاجي في سورة النبأ المباركة لأنها تكشف عن الكيفية التي وظف بها النص القرآني المعاني المضمرة في بناء موضوع الحجاج وإقناع المتلقي.

وتعد سورة النبأ المباركة من السور التي قامت بنيتها الخطابية على إثبات البعث والجزاء والقيامة والرد على منكري هذه الحقيقة، لذلك وظفت أنماطاً متعددة من الاقتضاءات الحجاجية التي أسهمت في بناء حجة قرآنية متماسكة، تبدأ من التساؤل حول النبأ العظيم، ثم تنتقل إلى عرض دلائل القدرة الإلهية، وصولاً إلى تقرير حقيقة البعث والجزاء والقيامة.

الكلمات المفتاحية: الاقتضاء، الحجاج، التداولية، سورة النبأ، المعنى المضمر.

Abstract:-

Argumentative implication is one of the most prominent pragmatic mechanisms that contributes to constructing a text and revealing implicit meaning within discourse. It relies on a set of assumptions presupposed by the speaker and inferred by the listener from the context. These assumptions then transform into argumentative premises that lead the listener to persuasive conclusions.

Modern linguistic studies have focused on implicit meanings that cannot be understood from literal meaning alone, but rather can be discerned from the context of the sentence and the requirements of the pragmatic situation. Pragmatic scholars have given considerable attention to implication as a fundamental element in the communication process because it contains unstated meanings that play a significant role in guiding the listener's understanding.

Hence the importance of studying the topic of argumentative implication in the blessed Surah An-Naba, as it reveals how the Quranic text employs implicit meanings in constructing the argument and persuading the listener. The blessed Surah An-Naba' is one of the surahs whose rhetorical structure is based on proving the resurrection, recompense, and Day of Judgment, and refuting those who deny this truth. Therefore, it employs various forms of argumentative implication that contribute to building a coherent Qur'anic argument, beginning with a question about the great news, then moving to presenting evidence of divine power, and finally establishing the reality of the resurrection, recompense, and Day of Judgment.

Keywords: implication, argumentation, pragmatics, Surah An-Naba', implicit meaning.

المبحث الأول

في مفهوم الاقتضاء والحجاج

لمحة عن سورة النبأ والاقتضاء الحجاجي فيها: دراسة تداولية

أولاً: لمحة عن سورة النبأ:

تُعدّ سورة النبأ من السور المكية التي احتلت مكانة بارزة في بناء التصور العقدي الإسلامي، ولا سيّما ما يتصل بقضية البعث والجزاء، وهي القضية التي شكّلت محور الجدل بين الرسول ﷺ والمشركين في المرحلة المكية. وقد جاءت السورة في سياق حجاجي تداولي يهدف إلى نقل المخاطبين من موقف الشك والإنكار إلى موقف الإقرار والتسليم بحقيقة البعث، معتمدةً في ذلك على مجموعة من الآليات اللغوية والتداولية التي تتجاوز المعنى الظاهر إلى معانٍ ضمنية يستنتجها المتلقي من خلال السياق ومقتضيات الخطاب.

وتنبع أهمية سورة النبأ في الدراسات التداولية من كونها تمثل خطاباً تواصلياً موجهاً إلى فئة من المخاطبين كانوا يتبنون موقفاً إنكارياً تجاه قضية البعث، الأمر الذي اقتضى توظيف استراتيجيات حجاجية متنوعة تقوم على الاستفهام والتقرير والتذكير بالدلائل الكونية والانتقال من المحسوس إلى المعقول. ومن ثم فإن فهم دلالات السورة لا يقتصر على المستوى المعجمي أو التركيبي، بل يستلزم الكشف عن المعاني المضمرة التي يقتضيها السياق وتفرضها المقاصد التخاطبية.

ويظهر البعد التداولي في السورة منذ مطلعها في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾، إذ لا يقتصر الاستفهام هنا على طلب المعرفة، وإنما يؤدي وظيفة تداولية تتمثل في إثارة انتباه المخاطب ولفت نظره إلى خطورة القضية المطروحة. كما أن وصف البعث بـ«النبأ العظيم» يتضمن حمولة دلالية تتجاوز الإخبار إلى الإيحاء بعظمة الحدث وأهميته، وهو ما يفتح المجال أمام المتلقي لاستنتاج معانٍ ضمنية تتعلق بحتمية وقوعه وآثاره المصيرية.

وتتجلى آليات المعنى المضمر في السورة من خلال اعتمادها على جملة من الظواهر التداولية، منها الاقتضاء الذي يظهر في الآيات الكونية الدالة على القدرة الإلهية؛ فذكر

الأرض والجبال والليل والنهار والمطر والنبات لا يراد به مجرد الإخبار عن النعم الإلهية، بل يقتضي معنى ضمنياً مفاده أن القادر على خلق هذه المظاهر الكونية العظيمة قادر على إعادة الإنسان بعد موته. كما تحضر الاستلزمات الحوارية من خلال الانتقال من ذكر المقدمات الكونية إلى النتائج العقدية دون التصريح بها، تاركةً للمتلقي مهمة استنتاجها اعتماداً على كفاءته التأويلية وسياق الخطاب.

ومن جهة أخرى، تتضمن السورة أفعالاً كلامية ذات أبعاد تداولية متعددة؛ فالاستفهام في مطلعها يحمل وظيفة تنبيهية وحجاجية، والتوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ يؤدي وظيفة تثبيت الحقيقة في ذهن المخاطب، في حين تمثل أوصاف الثواب والعقاب أفعالاً إنجازية تهدف إلى الترغيب والترهيب وتوجيه السلوك الإنساني نحو الإيمان والعمل الصالح.

وعلى مستوى الحجاج، تبني السورة خطابها على أساس الاستدلال العقلي؛ إذ تنتقل من مقدمات مشهودة في الواقع إلى نتائج غيبية، مستندة إلى مبدأ عقلي مفاده أن من قدر على الخلق ابتداءً فهو أقدر على الإعادة. وهذا البناء الحجاجي لا يُصرّح دائماً بنتائجه، بل يتركها مضمرة في ثنايا الخطاب، وهو ما يجعل المعنى المضمر عنصراً أساسياً في تحقيق مقاصد السورة الإقناعية.

وبناءً على ذلك، تمثل سورة النبأ نموذجاً ثرياً للدراسة التداولية؛ لأنها تجمع بين البنية الحجاجية والوظيفة الإقناعية والآليات الضمنية لإنتاج المعنى. ومن ثم فإن دراسة المعنى المضمر فيها تسهم في الكشف عن كيفية توظيف الخطاب القرآني للوسائل التداولية في بناء الحجة وتوجيه المتلقي وإقناعه، بما يبرز جانباً من إعجازه البياني والتواصلي.

ثانياً: في مفهوم الاقتضاء:

الاقتضاء لغةً من الفعل (اقتضى) أي طلب الشيء واستلزمه، يقال (اقتضى الكلام معنى)، أي استدعى وجوده[1].

وأما في الاصطلاح فهو المعنى الذي لا يستقيم الكلام ولا يعرف صدقه إلاّ بتقديره ويفهم ضمناً من خلال السياق، فهو المعاني الضمنية التي تتحول إلى مقدمات استدلالية، وقد اهتمت الدراسات التداولية بالاقتضاء باعتباره أحد آليات إنتاج المعنى المضمر؛ إذ لا

يقتصر النص على المعنى الحرفي فقط، وإنما يوجه السامع أو المتلقي إلى استنتاج المعاني الخطية المرتبطة بقصد المتكلم(٢).

وقد عرفه التداوليون بأنه مجموعة المعلومات التي يفترضها المتكلم ويسلم بها المتلقي عند فهم الملفوظ ويعد جزءاً من المعنى الضمني الذي لا يصرح به مباشرة في الخطاب(٣).

وقد بين روبرت ستالنكر أن الاقتضاء يمثل الخلفية المشتركة التي ينطلق من خلالها التواصل اللغوي، وأن عملية التخاطب يتوقف نجاحها على اشتراك المتخاطئين في هذه المعرفة المسبقة لإنشاء النص(٤).

وقد ظهر مفهوم الاقتضاء في الدراسات التداولية الحديثة الغربية باعتباره أحد مكونات المعنى الضمني الذي يفترضه المتكلم قبل إنتاج الملفوظ، ويعرف بأنه المعنى الذي يبقى ثابتاً حتى في حالة نفي الحملة أو تحويلها إلى استفهام(٥).

ويرجع أغلب الباحثين البذرة الأولى للاقتضاء إلى الفيلسوف الألماني كوتلوب فريضه الذي ذكر في مقالته عن المعنى والمرجع أن الجملة حين تحمل اسماً علماً فإنها تفترض مسبقاً وجود المسمى، وهذا الافتراض ليس جزءاً من المعنى الصريح للجملة وإنما يسبق الحكم على صدقها أو كذبها(٦).

ثم جاء الفيلسوف الإنجليزي فريدريك ستراوسن الذي طور مفهوم الاقتضاء في مقالته المشهور عن مفهوم (الإحالة) الذي قدم من خلاله نقداً جذرياً لتحليل العبارات المحددة، فقد ذكر ستراوسن إن الإحالة من الأفعال التواصلية وهو لا يتم في فراغ، وأن الافتراض المسبق شرط من شروط التداولية لفعل الإحالة لا للصدق المنطقي فقط، وبذلك نقل مفهوم الاقتضاء من الحقل المنطقي إلى حقل التداولية اللغوية فاسحاً المجال للتداوليين الذين جاءوا من بعده(٧).

وجاء بعد ذلك جون سيرل ليطور نظرية الأفعال الكلامية التي أسسها أستاذه الفيلسوف جون اوستن، وقد أسهم سيرل في إغناء مفهوم الاقتضاء من خلال ربطه بشروط النجاح في نظرية الأفعال الكلامية، فعنده كل فعل من أفعال الكلام يستلزم مجموعة من الشروط الضرورية لتحققه(٨).

وهذه الشروط في حقيقتها تُهيء السياق التواصلي لقبول الفعل الكلامي وتحقيق الأثر المقصود، وبه عدّ الاقتضاء شرطاً تداولياً من شروط نجاح الأفعال الكلامية[٩] أما في الفكر اللساني العربي فيعد طه عبد الرحمن المتصدر على قائمة الباحثين الذين سعوا إلى تأصيل الاقتضاء الحجاجي في الدرس التداولي في الثقافة العربية الإسلامية. ويرى طه عبد الرحمن أن الحجاج هو كل منطوق به موجه نحو إقناع المتلقي وحمله على اتخاذ موقف أو القيام بفعل معين[١٠].

وهذا التعريف يجعل الاقتضاء ركيزة أساسية في البنية الحجاجية؛ إذ كثيراً ما تعمل المقدمات الحجاجية على مستوى المضمر وليس المصرح به، وقد ميز عبد الرحمن بين ثلاثة مستويات من التداول وهي:

١- التداول المجرد: وهو الكلام في سياقه اللغوي.

٢- التداول المجسد: وهو الكلام في سياقه الاجتماعي.

٣- التداول المسدد: وهو الكلام في سياقه الأخلاقي والروحي.

ويعتبر القسم الثالث هو ما يتوضح في الخطاب القرآني، إذ أن المعنى المضمر فيه يرتقي إلى مستوى القيم والأخلاق والإيمان والمصير.

وأسهم محمد محمد يونس علي في تطوير مقاربة تداولية عربية أصيلة تستوعب خصوصية الخطاب العربي الإسلامي مقدماً في كتابه (المعنى وظلال المعنى) تحليلاً دقيقاً لمستويات المعنى في اللغة العربية مثمناً الدور الذي يؤديه الاقتضاء الحجاجي في توليد ظلال المعنى التي تعمق الدلالة التداولية وترسخه في وجدان المتلقي[١١].

المبحث الثاني

أنواع الاقتضاء الحجاجي في الدرس التداولي

تتعدد أنواع الاقتضاء الحجاجي في الدرس التداولي، وقد سعى الباحثون إلى تصنيفها وفق معايير متنوعة. ويمكن إجمالها في الأنواع الآتية:

أولاً: الاقتضاء الحجاجي الاستفهامي.

يعد الاستفهام من أبرز الآليات الحجاجية في قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (سورة النبأ ١ -٣).

في التحليل التداولي للآية الشريفة نجد أن الاستفهام ليس استفهاماً حقيقياً، فقد افتتحت السورة بذكر استفهام عن نبأه ثم ذكره في جواب ولحن التهديد بقوله تعالى أنهم سيعلمون، فالتساؤل الذي ذكرته الآية الشريفة من المشركين وقد أخبر عنه القرآن الكريم في صورة الاستفهام وهو هنا ليس استفهاماً حقيقياً؛ لأن الله تعالى يعلم موضوع التساؤل، وإنما الاستفهام جاء للتقرير فهو استفهام تقريري غرضه لفت الانتباه وتعظيم القضية المسؤول عنها، والأخبار بصورة الاستفهام يُشعر بهوانه وحقارته لظهور الجواب من خلال سؤالهم(١٢).

وقد ذكر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي أن الاستفهام بـ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ هو استفهام تعجبي ودون انتظار الجواب فإن الآية التي بعدها قد أجابت ما سُئل عنه في الآية الأولى بقوله تعالى ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾(١٣).

والاقتضاء التداولي يفترض النص مسبقاً بدليل وجود نبأ معروف لدى المتلقي وقد وصفته الآية الشريفة بأنه (النبأ العظيم) أي أن هذا النبأ له شأن عظيم، وأن الاختلاف بشأنه حاصل لا محال ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وهذه المعطيات في السورة المباركة تقدم أموراً تعد من المسلمات، والنتيجة الحجاجية هي إثارة ذهن المتلقي وتمهيده ليتلقى الأدلة التي تتبعه حول مسألة المعاد والبعث والنشور(١٤).

ثانياً: الاقتضاء الحجاجي التقريري.

وهذا الاقتضاء يؤدي معنى ضمنياً يبنى على مسلمات يشترك فيها المتكلم والمخاطب، ويوظف الإلزام المخاطب بنتيجة معينة عن طريق الإقرار والتسليم. وقد تجلت هذه المعاني الحجاجية التقريرية في سورة النبأ المباركة في موارد كثيرة منها في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾(١٥).

فإن الاستفهام في الآية المباركة ليس استفهاماً حقيقياً؛ لأن الله تعالى لا يطلب علماً مجهولاً وإنما هو استفهام تقريري، فإن الآية المباركة تفترض مسبقاً بأن المخاطب يعلم أن الأرض منبسطة وممهدة للعيش والاستقرار، وجاء الاستفهام لبيان نعم الله عزّ وجل على العباد وإقرارهم عليها، فالاقتضاء الحجاجي في الآية الشريفة يفترض وجود الأرض وكذلك صلاحيتها للعيش وإن المخاطب ذو معرفة بهذه الحقيقة التي أقرها إذ إن المخاطب إذا أقر بهذه النعمة الإلهية فيلزمه هذا الإقرار بقدرة الله عزّ وجل على البعث والنشور والحساب وهذا ما تقتضيه الآية من المعرفة المسبقة لدى المتلقي، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ فالاقتضاء الحجاجي في الآية المباركة يفترض بأن المخاطب يعتقد بوجود الجبال وأنها تقوم بوظيفة حفظ توازن الأرض واستقرارها. والوظيفة الحجاجية في الآية هي إثبات حكمة الصانع عزّ وجل وأنه أوجد هذا النظام الدقيق ولا يعجز عن إعادة الإنسان بعد موته فهي تشير إلى القدرة الإلهية التي تستلزم وجود يوم القيامة، وأن الله يبعث الناس للحساب والنشور، وكذلك في الآيات التي بعدها في قوله تعالى: ﴿**وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ◆ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ◆ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ◆ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ◆ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ◆ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا**﴾.

فالآيات الشريفة ظاهرها الإخبار عن هذه الأمور ولكن هذا الإخبار يؤدي إلى وظيفة تقريرية وأن المخاطب يعلم ويشاهد هذه الحقيقة في نفسه وفي واقعه، فوجود نظام الزوجية له حكمة وقصد في الخلق وهو يدل على وجود خالق عظيم وحكيم وقادر على الإعادة والبعث كما قدر على الخلق ابتداءً، ثم تعرض الآيات إلى حقيقة يومية يعيشها الإنسان باستمرار وهي أن النوم راحة للإنسان وإن هذا النظام ليس عبثياً أو عشوائياً وإنما لا بدَّ من وجود التدبير والحكمة في الحياة وأن الإنسان خلق لغاية تنتهي إلى الحساب، والنتيجة أن من يدبر هذا الكون بهذه الدقة قادر على تدبير أمر البعث والنشور والقيامة(١٦).

ومن أمثلة الاقتضاء الحجاجي التقريري في سورة النبأ المباركة قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، فالآية المباركة تذكر بعظمة السماوات والأرض وإحكام خلقها، ويفترض الاقتضاء الحجاجي في الآية الشريفة وجود السماوات العظيمة وقدرة الله عزّ وجل على إيجادها، والنتيجة الحجاجية هي أن خلق السماوات أعظم من

إعادة الإنسان، ومن قدر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه.

ثالثاً: الاقتضاء الحجاجي السلبي.

ويعد هذا النوع من أنواع الاقتضاء الحجاجي في الدرس التداولي من الآليات التداولية التي تسهم في بناء المعنى المضمر وتوجيه المخاطب نحو نتائج محددة من خلال مقدمات غير مصرح بها، ومن أنماط الاقتضاء الحجاجي السلبي هو ما يقوم على النفي أو الردع أو إظهار بطلان المعتقد للمخاطب بهدف حمله على العدول عن رأيه ومعتقده الباطل وتبني الموقف الصحيح.

وتعد سورة النبأ المباركة من السور التي واجهت المشركين الذين ينكرون البعث والقيامة، فكان أسلوب الردع والنفي والوعيد هو الطريق لإبطال عقيدتهم وبيان خطأها، وبناء حجة مضادة قائمة على إبطال وتفنيد موقفهم ومن هنا تتبين أهمية الاقتضاء الحجاجي السلبي في الدرس التداولي، ومن الآيات التي تحدثت بطريقة أسلوب الردع قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ فإن كلمة (كلا) من أدوات الردع والزجر في اللغة العربية، وتأتي لإبطال ما قبلها أو ردع المخاطب عن اعتقاده، والآية المباركة تفترض أن المشركين كانوا يشككون في مسألة البعث والنشور وإن هذا الموقف باطل وينبغي التراجع عنه. والوظيفة التداولية التي أفادها هذا النوع من الاقتضاء الحجاجي هي إبطال دعوى المنكرين قبل البدء بإقامة الأدلة الكونية.

ومن أمثلة الاقتضاء الحجاجي السلبي الذي جاء بطريقة الاستفهام التقريري لكنه يحمل إنكاراً ضمنياً على منكري البعث والنشور ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ فإن الآية الشريفة تفترض أن المتلقي يعلمُ قبل إنشاء الخطاب، بأن الله قادر ومع الإقرار بهذه القدرة وإنكاره للقيامة تناقض غير مقبول، والنتيجة الحجاجية هي نفي دعوى العجز عن إعادة الخلق وإحيائهم للبعث والجزاء يوم القيامة.

ومن أمثلة الاقتضاء الحجاجي السلبي الذي جاء بطريقة الردع والتهديد والاقناع فالاقتضاء الحجاجي السلبي يشكل عنصراً أساسياً في البنية التداولية في سورة النبأ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ فالآية الشريفة تؤكد حقيقة يوم القيامة، والاقتضاء الحجاجي

الذي تفيده الآية المباركة هي إن إنكار يوم القيامة الذي تسميه يوم الفصل هو حقيقة ثابتة لا بدَّ منها.

ومن الاقتضاء السلبي ما جاء في وصف جهنم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ فقد تعرضت الآية المباركة إلى مصير الطغاة يوم القيامة وأن الاقتضاء الحجاجي يفترض أن الطغيان ليس سلوكاً بلا عواقب وأن الإفلات من العقاب الإلهي هو أمر لا مناص منه.

رابعاً: الاقتضاء الحجاجي القياسي.

هو انتقال الذهن من قضية معلومة ومسلّم بها إلى قضية أخرى يراد إثباتها اعتماداً على وجود علاقة مشتركة بينهما(١٧).

ويختلف القياس الاقتضائي عن القياس المنطقي الصوري لأنه يعتمد على الإقناع والتأثير أكثر من اعتماده على البرهان الشكلي.

والمعنى الضمني الذي يستنتجه المتلقي يكون من خلال مقارنة حالتين أو ظاهرتين بحيث تكون الحالة الأولى دليلاً وبرهاناً على الحالة الثانية من دون التصريح بالقياس بصورة مباشرة.

ويعد هذا النوع من الاقتضاء الحجاجي هو أكثر الأنواع التداولية تأثيراً وهو الأكثر حضوراً في الخطاب القرآني الاقناعي، ولا سيما في آيات سورة النبأ المباركة التي تتعلق بالبعث والحساب والنشور(١٨).

ومن أمثلة الاقتضاء الحجاجي القياس في سورة النبأ المبارك:

أ) القياس بين إحياء الأرض وإحياء الموتى.

ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾. فإن الآيات الكريمة تصف نزول المطر وما يترتب عليه من إحياء الأرض وإنبات الزرع وخروج النبات، وظاهر الخطاب القرآني هو بيان نعم الله عزّ وجل على العباد في إنبات الزرع وإخراج الحب

من الأرض إلاّ أن السياق العام للسورة الكريمة المتعلق بإثبات البعث والحساب يجعل هذه الآيات تحمل معنىً ضمنياً آخر.

والاقتضاء الحجاجي في المقام يفترض النص الكريم أن الأرض قد تكون ميتة وجافة وأن نزول الماء من السماء يعيد إليها الحياة وأن المخاطب يلاحظ هذه الظاهرة باستمرار. والمعنى الضمني المضمر في المقام هو إحياء الأرض بعد موتها يتضمن معنى إحياء الإنسان بعد موته للحساب يوم القيامة، والنتيجة الحجاجية هي أن الإنسان إذا كان يسلّم بإحياء الأرض بعد موتها فلا مبرر للإنكار إمكانية إحياء البشر بعد موتهم للحساب يوم القيامة.

ب) الاقتضاء الحجاجي القياسي بين الخلق الأول والخلق الثاني.

ففي قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (النبأ /٨).

فإن الآية الشريفة تذكّر الإنسان بأصل خلقه ووجوده، ولا يقتصر المقصود في الآية على الامتنان بالنعم الإلهية ومنها نعمة الخلق، بل يتجاوزها إلى بناء حجة ضمنية، فالنص القرآني يفترض أن الله عزّ وجل خلق الإنسان من العدم وأن المخاطب يقر بوجوده مخلوقاً، والقياس الضمني هو أن الله خلق الإنسان من العدم وهو أعظم من الإعادة بعد الوجود.

والنتيجة الحجاجية في الآية الشريفة هي أن الله عزّ وجل القادر على الخلق والإيجاد لأول مرة فإنه أقدر على الإعادة يوم القيامة. وقد أشار المفسرون إلى أن القرآن الكريم كثيراً ما يحتج بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني(١٩).

جـ) الاقتضاء الحجاجي القياسي بين النظام الكوني والنظام الأخروي.

وقد تبين هذا الاقتضاء الحجاجي في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فالنص القرآني يعرض انتظام تعاقب الليل والنهار، ويفترض الاقتضاء الحجاجي أن الكون يسير وفق نظام دقيق وهذا النظام قائم على الحكمة وليس عبثياً والقياس الضمني في الآية الشريفة هو وجود نظام في الكون ويقابله وجود نظام في يوم القيامة وهو الجزاء والحساب، فلا يمكن أن يكون الكون منظماً بينما تكون حياة الإنسان تنتهي بلا حساب ولا جزاء يوم القيامة.

خامساً: الاقتضاء الحجاجي الإنذاري.

يعد الإنذار من أهم الوسائل الحجاجية في الخطاب القرآني، إذ أنه يهدف إلى تنبيه المخاطب وإنذاره من العواقب المترتبة على أفعاله ومعتقداته وتوجيهه إلى مراجعة مواقفه قبل وقوع الجزاء، ويؤدي هذا النوع من الاقتضاء الحجاجي دوراً مهماً في مجال الإنذار؛ لأنه لا يقتصر على التصريح بالعقاب وإنما يستبطن معاني ضمنية تجعل المتلقي يستنتج بنفسه خطورة الموقف والتخلص منها(٢٠).

وتعد سورة النبأ المباركة من السور المكيّة التي ركزت في أقضية الحساب والقيامة والجزاء، ولهذا نجدها حافلة بآيات الإنذار والوعيد وجعلت منها وسيلة حجاجية لإقناع مفكري المعاد وإلزامهم بالتفكير في مصيرهم يوم القيامة.

ومن أمثلة هذا النوع من الاقتضاء الحجاجي الإنذار بيوم الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (النبأ/ ١٧)، فالآية الكريمة جاءت مؤكدة بالحرف (إنّ) الدالة على اليقين، وافترضت الآية وجود يوم القيامة وإن موعده محدد لا يمكن أن يتخلف، والوظيفة الحجاجية هي الإنذار إلى أن يوم القيامة هو قادم لا محالة.

ومن الآيات التي جاءت لوظيفة الإنذار من لابدية وقوع العذاب يوم القيامة قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ (النبأ /٢١ - ٢٢).

فالآية المباركة صورت جهنم وكأنها تترقب الطغاة وتنتظرهم وتفترض أن الطغيان لا بدَّ أن يؤدي إلى العقاب، وأن العقوبة معدة سلفاً فالاقتضاء الحجاجي الانذاري في الآية هو تحذير المخاطب من سلوك طريق الطغيان الذي يؤدي إلى نتيجة حتمية وهي دخول نار جهنم.

ومنها الإنذار بالخلود في العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾(النبأ/٢٣) فإن الاقتضاء الحجاجي الإنذاري في الآية الشريفة هو التعبير عن طول مدة البقاء والمكث في نار جهنم والأحقاب هي الأزمنة الكثيرة والدهور الطويلة من غير تحديد، والاقتضاء الحجاجي الانذاري يفترض أن العقوبة ليست عابرة وإن آثار التكذيب مستمرة وتعظيم أثر الوعيد في نفس المتلقي(٢١).

ومن الاقتضاء الحجاجي الإنذاري في سورة النبأ الإنذار بحرمان أهل النار من الراحة في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ (النبأ/ ٢٤-٢٥)، فالآية الكريمة اعتمدت على أسلوب النفي والاستثناء وهو أسلوب بلاغي يفيد الحصر، وأن الاقتضاء الحجاجي الإنذاري في الآية المباركة يفترض انتفاء كل أسباب الراحة في يوم القيامة واستبدالها بألوان من العذاب للكافرين. والنتيجة الحجاجية في النص المبارك هي إحداث آثار نفسية عند المتلقي لكي يتجنب أسباب الكون في هذا المصير وإنذاره من الوقوع في آثاره التي تتسبب عن إنكار المعاد والبعث والنشور. ومن الاقتضاء الحجاجي الإنذاري هو الإنذار بفقدان القدرة على الاعتذار من الله عزّ وجل أو الاعتراض على حكمه سبحانه وتعالى وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، فالآية تنفي قدرة الخلق على الكلام بغير إذن الله تعالى فهي تفترض زوال الحجج البشرية يوم القيامة وانقطاع الأعذار والاحتجاجات ودعوة الإنسان إلى مراجعة نفسه قبل فوات الأوان.

المبحث الثالث
المعنى المضمر في سورة النبأ

يعد المعنى المضمر من أهم المفاهيم التداولية التي اهتمت بالكشف عن المعاني غير المصرح بها في الخطاب، والتي يستنتجها المتلقي اعتماداً على السياق والقرائن. وقد حظي الخطاب القرآني بعناية كبيرة في الدراسات التداولية، لما يتضمنه من دلالات ظاهرية وأخرى مضمرة تؤدي وظائف حجاجية وإقناعية وتوجيهية متعددة، وتعد سورة النبأ المباركة من السور التي تزخر بالمعاني المضمرة؛ إذ أن هذه السورة عالجت قضية المعاد والبعث والحساب وإثبات قدرة الله عزّ وجل ورد المنكرين بأساليب تداولية متنوعة وقد عرف التداوليون المعنى المضمر بأنه المعنى الذي لا يفهم من الدلالة الحرفية المباشرة للعبارة، وإنما يستنتج من خلال السياق والمقام والمعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب، ويشتمل المعنى المضمر على أربعة أمور هي:

أ - الاستلزام الحواري.

ب - الاقتضاء.

جـ - الافتراض المسبق.

د - التلميح والإيحاء[٢٢].

تجليات المعنى في سورة النبأ.

أولاً: الاستفهام التداولي في مطلع السورة في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (النبأ / ١ - ٣).

فالمعنى الظاهر لهذه الآيات هو موضوع تساؤل المشركين عن أمر معين، وأما المعنى المضمر فقد ذكر المفسرون أن هذا الاستفهام ليس استفهاماً حقيقياً يراد به طلب جواب أو معرفة شيء مجهول؛ لأن الله عزّ وجل يعلم ما يتساءلون عنه وإنما الغرض من الاستفهام هو التعجب من حال المشركين وتوبيخهم على اختلافهم ولفت الانتباه إلى أهمية الموضوع، فالمعنى المضمر هو كيف يختلف هؤلاء في أمر واضح الدلالة وهو البعث والنشور، وهذا ما يسميه التداوليون بالفعل الكلامي غير المباشر[٢٣].

ثانياً: الاقتضاء الحجاجي في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، فإن المعنى الظاهر لهذه الآية المباركة هو أنهم سيعلمون في المستقبل، وأما المعنى المضمر فهو وجود تهديد ضمني للمشركين المكذبين بيوم القيامة، فسياق الآية لا يقتصر على مجرد الأخبار وإنما يتضمن معاني أخرى وهي الوعيد والتخويف وتحذير المشركين من عذاب النار، وبذلك يتحول الخبر إلى فعل انجازي تهديدي.

ثالثاً: الافتراض المسبق في دلائل القدرة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فالمعنى الظاهر لهذه الآيات المباركة هو تقرير لنعم الله عزّ وجل على العباد من خلق الأرض وجعلها منبسطة وخلق الجبال وخلق الإنسان. فالآية في مجال تقريري أما المعنى المضمر فإن الآيات المباركة تفترض مسبقاً إقرار المخاطبين بوجود الأرض والجبال والنظام الكوني، ومن هذا الافتراض ينتقل معنى الخطاب إلى نتائج مضمرة وهي أن من قدر على خلق الأرض والجبال العظيمة ألا يقدر على إحياء الموتى للحساب والنشور يوم القيامة؟ وهذا استدلال تداولي يعتمد على المعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب.

رابعاً: الاستلزام الحواري في آيات الخلق، ففي قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فإن المعنى الظاهر للآية الشريفة هو خلق الناس من زوجين ذكر وأنثى وهذه الحقيقة لا تخفى على أحدٌ ولكن المعنى الضمني هو وجود نظام دقيق في الكون وهذا يستلزم وجود خالق حكيم وقادر وإن خلق الإنسان لم يكن عبثياً بل لا بدَّ من يوم سيحشر الله الناس فيه وهو يوم القيامة وإمكان البعث والحساب، وهذا المعنى لم يصرح به مباشرة ولكنه يستنتج من السياق العام للسورة المباركة(٢٤).

خامساً: المعنى المضمر في ذكر النوم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فالمعنى الظاهر للآية هو أن من نعم الله عزّ وجل جعل النوم راحة لبدن الإنسان الذي يقضي النهار في العمل ويحتاج إلى هذه الراحة، أما المعنى المضمر فإنه يصور النوم بأنه صورة مصغرة للموت ثم اليقظة وهي صورة مصغرة ليوم الحساب وهو إذا بُعث الناس من قبورهم لغرض الحساب، ولذلك استدل القرآن الكريم بالنوم على إمكان الإحياء بعد الإماتة، فالمعنى الضمني هو أن الذي يقدر على أن يبعث الإنسان من نومه يومياً هو قادر على بعثه بعد موته(٢٥).

سادساً: المعنى المضمر في مشاهد القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (النبأ: ١٨)، فالمعنى الظاهر للآية الشريفة هو الأخبار عن يوم القيامة والمواقف التي تمر على الناس في ذلك المقام.

وأما المعنى المضمر للآية الشريفة فهي إثبات حتمية وقوع يوم القيامة فالسورة المباركة ليست في صدد عرض الأمر بوصفه احتمالاً، وإنما تصف الحدث بأنه واقع لا محالة، وهذا يولد أثراً تداولياً يتمثل في إلزام المخاطب بالاستعداد لذلك اليوم وهو يوم النفخ في الصور وهو يوم البعث والنشور(٢٦).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (النبأ/ ٢١)، فإن المعنى الظاهر للآية المباركة هو أن جهنم مكان للرصد والمراقبة، وأما المعنى الضمني للآية المباركة هي أنه لا مهرب ولا نجاة للمجرمين المنكرين ليوم القيامة من العقوبة والكون في نار جهنم، فكلمة (مرصاداً)

تشير إلى المراقبة والانتظار والترقبُ وهذا المعنى يتجاوز الدلالة المعجمية إلى الدلالة التداولية.

ومن المعاني المضمرة في وصف الجنة قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾(النبأ: ٣١) - فإن المعنى الظاهر لهذه الآية هو وجود فوز للمتقين الذي يخافون ربهم ويخافون يوم القيامة فإن الله وعدهم بالجنة وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة بالفوز، وأما المعنى المضمر الذي تتضمنه الآية المباركة فهو دعوة غير مباشرة للناس أن يكونوا من المتقين لما أعدّ الله لهم يوم القيامة من جنات وعيون، فالآية الكريمة لا تأمر الناس مباشرة بالتقوى وإنما تذكر لهم ما أعدّ الله للمتقين فيكون تحفيز للناس أن يكونوا من أهل الجنة وهو ما يسمى بالتوجيه غير المباشر، ومنه المعنى المضمر في ختام السورة المباركة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ (النبأ: ٤٠)، فإن الاقتضاء الحجاجي جاء الإنذار بصيغة التوكيد بالحرف (إنّ الأحداث أثر نفسي يدفع السامع إلى التوبة إلى الله وإصلاح نفسه، والمعنى المضمر في الآية الشريفة هي وقوع العذاب أمر محقق لا مناص منه فلا بد من الاستعداد له وأن الإنسان مسؤول عن أعماله، والعمل لتخليص نفسه من العذاب المؤكد إذا أنكر البعث والنشور والقيامة.[٢٧]

النتائج:

١- يتبين من خلال البحث في سورة النبأ المباركة دراسة تداولية أن الاقتضاء ليس مجرد معنى خفي، وإنما هو آلية حجاجية فاعلة تسهم في بناء الخطاب القرآني، فقد اعتمدت السورة على مجموعة من الافتراضات المسبقة المرتبطة بالبعث والجزاء.

٢- إن سورة النبأ المباركة قد وظّفت أنواعاً متعددة من الاقتضاء الحجاجي منها الاستفهامي، والتقريري، والسببي، والقياسي، والإنذاري، وغيرها وجعلتها أدوات تداولية لإثبات حقيقة البعث والجزاء.

٣- إن الاقتضاء الحجاجي التقريري يمثل الركيزة الأساسية في البناء الحجاجي لسورة النبأ المباركة.

٤- يتبين من خلال الدراسة أن الاقتضاء الحجاجي السلبي يشكل عنصراً أساسياً في البنية التداولية لسورة النبأ إذ اعتمدت على النفي والإثبات والردع والإنكار لإبطال

موقف منكري المعاد.

٥- أن السورة اعتمدت شبكة متكاملة من الاقتضاءات الحجاجية شملت الاقتضاء الاستفهامي والتقريري والقياسي والسلبي وتظافرت هذه الأنواع لتشكيل بنية حجاجية تداولية تهدف إلى إثبات البعث والجزاء.

٦- اعتمدت السورة على المعاني المضمرة أكثر من التصريحات المباشرة في إثبات البعث والجزاء.

هوامش البحث

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة (قضى)، ١٨٦/١٥.
(٢) ينظر: اللغة والحجاج،ص٨٥.
(٣) التداولية عند العلماء العرب، ص١٣٤.
(٤) في التداولية المعاصرة، ص٨٥.
(٥) الحجاج في القرآن الكريم، ص١٣٥.
(٦) ينظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحواشبة، ص٧٢.
(٧) نظرية الأفعال الكلامية، ص٤١.
(٨) المصدر نفسه، ص٧٧.
(٩) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، ص١١٤.
(١٠) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص٩٣.
(١١) ينظر: المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي.
(١٢) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٢٣٣/٢٠.
(١٣) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي، ٢٢٣/١٩.
(١٤) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم، ص١٣٥.
(١٥) في التداولية المعاصرة، ص٨٥.
(١٦) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، ٢٣١/٢٠.
(١٧) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، ص٦٧.
(١٨) ينظر: اللغة والحجاج، ص٧٨.

(١٩) ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ص

(٢٠) ينظر: اللسان والميزان: ص٥٨

(٢١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، ٢١٨/١٠.

(٢٢) ينظر: التداولية عند العلماء العرب

(٢٣) التداولية عند العلماء العرب، ص٣٩.

(٢٤) ينظر: نظرية الأفعال الكلامية، ص٨٨.

(٢٥) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، ٢٦١/٢٠.

(٢٦) ينظر: في التداولية المعاصرة: ص١٣

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، تأليف العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار الاميرة.

٢- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس.

٣- التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت - لبنان.

٤- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانتسه، ترجمة: صابر الحباشة، اللاذقية.

٥- الحجاج في القرآن الكريم، محمد العمري، الدار البيضاء.

٦- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن.

٧- اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، دار الأمان، الرباط، ٢٠٠٦.

٨- المعنى وظلال المعنى، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧.

٩- في التداولية المعاصرة، محمد نظيف، الدار البيضاء.

١٠- مجمع البيان في تفسير القرآن، تأليف: أمين الإسلام أبي علي الفضل الحسن الطبرسي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

١١- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت - لبنان.